تحولات الأفعال في السياق القرآني وأثرها البلاغي

. د عبد الله علي الهتاري
أستاذ اللغة العربية المساعد كلية الآداب والألسن جامعة ذمار

قسم النحاة الفعل ثلاثة أقسام هي ((ماضٍ وهو ما دل على الزمن الماضي، ومضارع وهو ما دل على زمن الحاضر أو المستقبل، وجعلوا القسم الثالث وهو الأمر يدخل ضمن الدلالة على زمن المستقبل))[(1)].

وفي تقسيمهم هذا انطلقوا من أن الأزمان ثلاثة ماضٍ، وحاضر، ومستقبل، يقول سيبويه (ت 180هـ) (وأما الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع))[(2)].

((فالنحاة قسموا الفعل على أساس تقسيم الزمن الفلسفي، وهو الماضي، والحاضر، والمستقبل، وخصوا كل زمن بصيغة معينة، هو معناها في حالة الإفراد والتساوق على السواء))[(3)].

وقد انتقد بعض الباحثين المعاصرين النحاة لتركيزهم على الزمن في صيغة الفعل، وإهمال السياق الذي وردت فيه، فيرى فاضل الساقي ((أنه كان على النحاة أن يدركوا أن الأفعال مجرد صيغ وألفاظ تدل على زمن ما، هو جزء من

---

(1) أقسام الكلام العربي، من حيث الشكل والوظيفة، د.فاضل مصطفى الساقي، 229.
(2) الكتاب، لسيبويه، أبي بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت 180هـ)، 12/1.
(3) أقسام الكلام العربي، من حيث الشكل والوظيفة، د.فاضل مصطفى الساقي، 231.

معنى الصيغة لا على زمن معين، وأن السياق أو الظروف القولية بقرائنها اللفظية والحالية هي وحدها التي تعين الدلالة الزمنية وترشحها لزمن بعينه) .[(4)]

وعليه فقد قسم هؤلاء الباحثون[(5)] الزمن نوعين هما

أولاً الزمن الصرفي وهو الزمن الذي تدل عليه الصيغة المفردة خارج السياق

ثانياً الزمن النحوي، أو يسمى "الزمن السياقي التركيبي" ((وهو الذي تُحَدِّده القرينة اللفظية أو الحالية، أي هو معنى الفعل في السياق))[(6)].

وللمقارنة بين الزمن النحوي والزمن الصرفي يمكن القول إن ((مجال النظر في الزمن النحوي هو السياق، وليس الصيغة المفردة، وبناء الجملة العربية أخصب مجال لهذا النظر بينما لا يكون مجال النظر في الزمن الصرفي إلا الصيغة منفردة خارج السياق))[(7)].

ويرى مالك المطلبي ((أن الصيغ في اللغة العربية تخلو من الدلالة على زمن في المستوى الصرفي)).[(8)] وأن ((وقوع الصيغ المتغايرة في مستوى تركيبي واحد يعني تفريغ صيغة ما، دون غيرها من الزمن حيث تشير إلى وجه من وجوه دلالتها الحدثية، ومن هنا يكون من الخطأ إسناد الزمن إلى مثل هذه الصيغ بوصفها "شكلاً زمنياً"؛ لأن الزمن يكتسب من قرائن السياق اللفظية والمعنوية))[(9)].

ويرى الباحث أن دلالة السياق على الزمن النحوي لا تنفصل عن دلالة المفردة للصيغة الصرفية، فهما متعالقتان، وأن الصيغة الصرفية لا تخلو من دلالة

---

(4) السابق، 232.

(5) انظر اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، 240، الزمن واللغة، مالك المطلبي، 83، أقسام الكلام العربي، 235- 236.

(6) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، عبدالحميد أحمد يوسف هنداوي، 50.

(7) أقسام الكلام العربي، 237.

(8) الزمن واللغة، 82.

(9) السابق، 71.

زمنية، غير أن السياق يضفي دلالة إضافية للدلالة الصرفية المفردة يحددها السياق نفسه، فيَجمع بين الدلالتين، ولا تلغي إحدى الدلالتين الأخرى، أو تفرغها من محتواها

فمن ذلك مثلاً الفعل "أتى" في قوله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل 1] يدل بصيغته الصرفية على المضي المطلق، في زمن مضى وانقضى، إلا أن وروده في السياق ((يفرض عليه دلالة سياقية يقتضيها السياق ويدل عليها، وهي دلالة الاستقبال؛ لأن القرينة اللفظية "فلا تستعجلوه في السياق النحوي التركيبي تشير إشارة واضحة جلية إلى أنه لما يقع بعد ومع كونه فعلاً ماضياً في الصيغة الصرفية، فإننا لا نفرغ هذه الصيغة الصرفية من دلالتها الزمنية ولا نخضعها للدلالة السياقية فقط، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، إذ لو كان ذلك هو المراد لجاءت الصيغة صريحة بقوله "سيأتي أمرّ الله ومع ذلك لا نقف عند حدود الدلالة الصرفية اللفظية لنقول بأنه فعل ماضٍ قد وقع وحصل؛ فالقرينة السياقية تمنع ذلك وهي قوله "فلا تستعجلوه"، وإنما نجمع بين الدلالتين الصرفية والنحوية، الإفرادية والتركيبية، لنقول إن المراد "هو توظيف الصيغة في معنى الاستقبال متضمنة معنى المضي وموظفة له في الوقت نفسه، فكأن مقصود الآية أن تقول سيأتي أمر الله لا محالة مجيئاً مقطوعاً به، بل هو في حكم ما وقع وأتى بالفعل))[(10)].

ونلحظ أن مجيء الأفعال في السياق القرآني كثيراً ما يخرج عن النمط المألوف للغة من حيث التصرف في أزمنة الفعل، وذلك كالتعبير عن الحدث الماضي بالمضارع والتعبير عن الحدث المستقبل بالزمن الماضي، وكثيراً ما نجد السياق القرآني لا يجري على نمط واحد في المطابقة الزمنية بين الأفعال، إذ

(10) الإعجاز الصرفي، 52- 53.

يحصل تصرف في التحول الداخلي للسياق نفسه بالمخالفة في أزمنة الأفعال، كأن يرد في السياق ذكر الفعل المضارع ثم ينكسر النسق السياقي بمجيء الفعل الماضي في السياق نفسه أو العكس، مما يثير التساؤل عن معرفة سبب ذلك التحول ودلالته التعبيرية في السياق القرآني

وهذا التحول "يكشف عن تصادم الأزمنة على مستوى البنية السطحية مما يدفع المتلقي إلى الانتباه والتفاعل مع النص، ومحاولة إعادة التوافق بين صيغ الأفعال وأزمنتها في البنية العميقة"[(11)].

فالبنية العميقة تستوجب المطابقة في أزمنة الفعل في السياق اللغوي، والتحول عنها إلى البنية السطحية التي برزت على سطح النص تستدعي تحولاً في المعنى يرافق هذا التحول في المبنى

وقد توقف علماؤنا عند هذا النوع من التحول وعدّوه ضرباً من البلاغة، يقول ابن الأثير (ت 636هـ) (واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن التحول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية، اقتضت ذلك، وهو لا يتوخّاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطّلع على أسرارها، وفتّش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان، وأدقها فهماً وأغمضها طريقاً))[(12)].

ونحن في تناولنا لهذا التحول في صيغ الأفعال، لا نتناولها من الناحية الصرفية، وإنما نتناولها من حيث دلالة الزمن النحوي الذي وردت فيه في السياق إذ تناول هذه الصيغ مفردة خارج السياق اللغوي يعد تناولاً صرفياً، وتناولها في السياق الواردة فيه من حيث الدلالة الزمنية يعد تناولاً نحوياً سياقياً، كما سبقت الإشارة إليه

والتحول في الأفعال يتمثل في ست صور وهي على النحو الآتي

---

(11) تحولات البنية في البلاغة العربية، د. أسامة البحيري، 320.

(12) المثل السائر، 2/193- 194.

الصورة الأولى: التحول عن الفعل الماضي إلى المضارع:

مجيء المضارع بعد الماضي في هذا الضرب من التحول يكون على نوعين:[13] نوع يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث قد مضى وانقضى، ونوع آخر يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث يقع في الحال والاستقبال

أما النوع الأول فمجيء المضارع فيه للدلالة على حدث قد مضى، وقد قرر علماء البلاغة أن المضارع في الحالة هذه يقصد به استحضار الصورة للحدث الماضي، وكأنه أمر مشاهد بارز للعيان، يقول ابن الأثير ((واعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل، كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي)) [14].

وهذا ما أطلق عليه الزمخشري (ت 538هـ) مصطلح "حكاية الْحال" يقول الزمخشري عند قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر 9] فإن قلت لم جاء "فَتُثِيرُ" على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟ قلت ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية))[15].

فالسياق هو الذي أضفى على الفعل المضارع في هذه الحالة دلالة زمنية معينة، وذلك من عطف الفعل المضارع على الفعل الماضي، إذ يقتضي السياق بموجب المطابقة الزمنية أن تجري الأفعال الواردة فيه على نسق واحد، يقول

---

(13) انظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ضياء الدين بن الأثير (ت 636هـ)، ، 194/2.

(14) السابق 194/2.

(15) ا الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت 538هـ)، 301/3.

السيوطي (ت 911هـ) ((وما عطف على حال أو مستقبل أو ماضٍ أو عطف عليه ذلك فهو مثله؛ لاشتراط اتحاد الزمان في الفعلين المتعاطفين))[16].

فمجيء الفعل المضارع في الحالة هذه خارجاً عن النسق العام للسياق يؤدي إلى توليد بارزتين في السياق، دلالة نحوية متمثلة في الفعل المضارع الدال على الزمن الحاضر أو الاستقبال، ودلالة سياقية متمثلة في الإشارة إلى الزمن الماضي، وذلك بالعطف على الماضي أو مجيئه بعده، فالدلالة السياقية تقتضي مضيه والدلالة النحوية للصيغة تقتضي استحضاره، فيجمع بين الدلالتين ليقال إنه الماضي الحاضر، أو بعبارة (فندريس) هو "المضارع التاريخي"، وذلك ((استعمال شائع في الحكاية حيث يسمى بالحاضر التاريخي، وفيه يجد المثقفون سحراً خاصاً، يقولون بأن الحاضر أكثر تعبيراً

أو أبلغ حتى ليجعل المنظر يحيا من جديد أمام عيني القارئ، ويرجع بفكرنا إلى اللحظة التي دار فيها الحديث))[17].

ومن أمثلة هذا المضارع التاريخي ما جاء في حديث عبد اللّه بن عتيك حين دخل على أبي رافع اليهودي حصنه، قال فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم لا أدري أنى هو من البيت، فقلت أبا رافع، فقال من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه بالسيف وأنا دهش))[18].

ففي هذا النص نجد أن الفعل المضارع (أضرب) يدل في معناه على حدث مضى وانقضى، بدلالة السياق على ذلك، إذ كل أحداثه ماضية (فانتهيت فقلت فأهويت .)، وكان حق الفعل (أضرب) أن يرد ماضياً فيكون (فأهويت

---

(16)همع الهوامع، الإمام جلال الدين السيوطي، (ت 911هـ)، 23/1.

(17) اللغة، فندريس، 138.

(18)دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ت (474هـ)، ، 206.

نحو الصوت فضربته وأنا دهش) لكنه تحول عن الماضي إلى المضارع؛ لاستحضار الحدث وكأنه مشاهد للعيان؛ لأن الموقف موقف تعجب ودهشة

ومنه أيضاً قول تأبط شراً[19]:

لا مَنْ مُبْلِغٌ فِتَيانَ فَهْمٍ بِمَا لاَقَيْتُ عِنْدَ رَحى بِطَانِ
بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِيَ بِسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانَ
فأضربُها بِلاَ دَهَشٍ فَخَرَّتْ صَرِيْعَاً لليديْن وَلِلْجِرَانِ

فالمستوى السطحي[20] لقيتُ → ← أضربها
ماضٍ → ← مضارع
والمستوى العميـق لقيتُ ⟶ فضربتها
ماضٍ ⟶ ماضٍ

فالسياق الزمني للأبيات يسير على جهة الإخبار بالماضي (لاقيت، لقيت)، والشاعر في هذا الموقف يريد أن يخبر على سبيل السرد والحكاية عن واقعة مدهشة حصلت له، فأتى بـ (ألا) الاستفتاحية ليشد انتباه السامعين لسماع السرد والحكاية، ثم يذكر المكان "رحى بطَان ويثير الرعب والخوف بذكر اسم "الغول"، وأنه لقاه بمكان خلاء لا ملجأ فيه ولا احتماء، ثم بعد السرد الحكائي بصيغة المضي تحول إلى الفعل المضارع لحظة المواجهة الحاسمة مع الغول، فقال "فأضربُها وذلك أنه ((قصد أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياها مشاهدة، للتعجب من جراءته على

---

(19)الإغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ، 129/21، وانظر ديوان تأبط شراً، ضمن ديوان الصعاليك، ت يوسف شكري فرحات، ص 171- 172.

(20) الأسهم التي للخلف دلالة على الماضي، والأسهم التي للأمام دلالة على الزمن المضارع، انظر تحولات البنية في البلاغة العربية، 322.

ذلك الهول، ولو: قال "فضربتها عطفاً على الأول؛ لزالت هذه الفائدة المذكورة))[21].

ويقول ابن الأثير ((فإن قيل إن الفعل الماضي أيضاً يتخيل منه السامع ما يتخيله من المستقبل، قلت في الجواب إن التخيل يقع في الفعلين معاً، لكنه في أحدهما وهو المستقبل أوكد وأشد تخيّلاً؛ لأنه يستحضر صورة الفعل، حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه، ألا ترى لما قال تأبط شراً "فأضربها تخيّل للسامع أنه مباشر للفعل، وأنه قائم بإزاء الغول، وقد رفع سيفه لضربها، وهذا لا يوجد في الفعل الماضي؛ لأنه لا يتخيل السامع منه إلا فعلاً قد مضى من غير إحضار للصورة في حالة سماع الكلام الدال عليه، وهذا لا خلاف فيه)) [22].

وعد السكاكي (ت626هـ) هذا النوع من التحول أصلاً بلاغياً ثابتاً إذا اقتضى السياق اللجوء إليه، فقال ((وإنه -أي الانتقال من التعبير بالماضي إلى المضارع طريق للبلغاء لا يتحولون عنه، إذا اقتضى المقام سلوكه)) [23].

ويرد هذا النوع من التحول بكثرة في الكتاب العزيز، ويعد من روائع البيان فيه، إذ عمد القرآن الكريم إلى صورة مغرقة في القدم فاستدعاها من الماضي السحيق إلى الزمن الحاضر؛ لتصبح كأنها مشاهدة ماثلة للعيان، من ذلك قوله تعالى مخاطباً اليهود ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقًا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقًا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة 87].

---

(21) المثل السائر، 196/2.

(22) السابق الصفحة نفسها

(23)مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، 247.

ففي هذا السياق حصل تحول عن الفعل الماضي "كذبتّم إلى الفعل المضارع "تقتلوّن وكان مقتضى السياق بموجب المطابقة الزمنية بين الأفعال أن يكون على النحو ((ففريقاً كذبتم وفريقاً قتلتم))

لا سيما أنه يتحدث عن أمر حدث في الزمن الماضي، من تكذيب اليهود للأنبياء وقتلهم إياهم، لكن السياق تحول عن الماضي إلى المضارع؛ لأن قتل الأنبياء أمر فظيع، فأراد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب[24].

وسياق هذه الآية يشابهه سياق آخر وهو قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة 91].

إذ جاء الفعل المضارع "تقتلوّن الدال على الحال مقترناً بظرف الزمان "قبّلُ الدال على الماضي، مما يجعل دلالة الفعل المضارع دالة على الزمن الماضي، فالفعل لا يدل على زمن الحدوث،

وإنما يدل على زمن الإخبار، فللفعل الماضي زمانان؛ زمن حدوث ووقوع، وزمن إخبار عنه، وهو ما أشار إليه الزجاجي (ت 337هـ) بقوله: ((والفعل الماضي ما تَقَضَّى وأتى عليه زمانان، لا أقل من ذلك، زمان وجد فيه، وزمان خبر فيه عنه)) [25].

ونجد أن السياق القرآني قد نسب جريمة القتل إلى الأحفاد عندما خاطبهم فقال ((فلم تقتلون أنبياء اللّه من قبلُ))، في حين أن القتل قد حصل في الزمن الماضي من الأجداد، وذلك من بلاغة السياق القرآني، إذ أفاد الفعل "تقتلوّن

(24) انظر الكشاف، 295/1.

(25) الإيضاح في علل النحو، أبي القاسم الزجاجي، 87.

الاستمرارية للحدث، كما أفاد الحضور للمشهد في الأذهان، إشارة إلى أن نزعة القتل والإجرام تسري في دماء الأحفاد كما سرت في دماء الأجداد

وفي ذلك تنبيه في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض، وأنهم سواسية في الجرم، فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم، أو الرضى عن أفاعيلهم، أو الانطواء على مثل مقاصدهم))[26].

وأضفى ظرف الزمن الماضي "قَبْلُ على السياق دلالتين، دلالة تفيد إرجاع السياق اللغوي للفعل إلى الزمن الحقيقي للحدوث وهو الماضي، ودلالة أخرى توحي بأن قتل الأنبياء قد كان في الزمن الماضي في حق من سلف منهم، أما هذا النبي فلا يُمَكَّنون منه، فالله يعصمه من الناس، يقول محمد عبدا لله دراز((ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبي العربي الكريم وباباً من الأطماع لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله "من قَبْلُ فقطع بهذه الكلمة أطماعهم وثبت بها قلب حبيبه، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس)) [27].

((فإذا أخذنا بدلالة الماضي للظرف "قَبْلُ كانت دلالة الفعل "تقتلون"تفيد استحضار الصورة لحدث مضى في الزمان، وإذا أخذنا بما توحيه دلالة "قَبْلُ من استحالة حصول الفعل وتحققه بالنسبة لهذا النبي، كانت دلالة الفعل "تقتلوْن تفيد تجدد محاولة الفعل منهم والاستمرار، والجمع بينهما نوع من الانفتاح الدلالي للنص القرآني

---

(26)النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د محمد عبدا لله درّاز، 154.

(27) السابق، 155.

ولكننا نجد سياقاً آخر في القرآن الكريم يرد فيه الإخبار بصيغة ضمير الغائب في الحديث عن بني إسرائيل، كما هو الحال في قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة، 70].

وهذا السياق تنسجم فيه الدلالة الزمنية للسياق الداخلي من خلال الإخبار عمن سبق من بني إسرائيل بصيغة ضمير الغائب "إليهم، جاءهم، أنفسهم" مع السياق الخارجي للزمن الماضي، وبناءً على ذلك فتتصرف دلالة الفعل المضارع "يقتلون"، في الحالة هذه إلى استحضار الصورة لا غير، وليس فيه دلالة استمرار الحدث وتجدده، يقول الزمخشري (ت 538هـ) ((جيء "يقتلون" على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل واستحضاراً لتلك الحالة الشنيعة للتعجيب منها))[28].

ومما سبق ذكره يمكننا الجمع بين دلالات هذه السياقات المختلفة، لنقول إن دلالة الفعل "يقتلون" تفيد استحضار صورة قتل الأجداد للأنبياء تبشيعاً لقبح فعلتهم، وذلك من سياق الإخبار عنهم بضمير الغائب، وفيه دلالة على استمرار الحدث وتجدد حصوله من الأبناء والأحفاد وذلك من سياق الخطاب، من خلال قوله تعالى((كلما جاءهم)) الدالة على استمرار القتل باستمرار بقاء العلة وهي ((بما لا تهوى أنفسهم)) وفيه تيئيس من تحقق ذلك وحصوله في حق هذا النبي ﷺ.

وهذا يعد من بلاغة تصريف القول في القرآن الكريم، فقد تم توظيف القيمة الزمنية في صياغة الفعل للحصول على مساحة تتعدد فيها الدلالات للنص وتتسع

(28) الكشاف، 633/1.

وكما أن وظيفة استحضار الصورة في سياق الآيات السابقة كان لغرض تصوير فظاعة الحدث وقبحه، فكذلك نجد استحضار الصورة في سياق آخر يرد للفت الأنظار إلى موضع القدرة والاعتبار، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر 9] فإنه إنما قال (فتثير، مستقبلاً، وما قبله وما بعده ماضٍ؛ لذلك المعنى الذي أشرنا إليه وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة))[29].

ويتحول الماضي المنفي إلى المضارع المنفي فيفيد الفعل المضارع في هذه الحالة تأكيد النفي، وليس استحضار الصورة كما هو الحال مع المضارع المثبت، وهو ما ذهب إليه ابن جني (ت 392هـ) إذ قال (ومنه قولهم لم يقم زيد، جاءوا فيه بلفظ المضارع وإن كان معناه المضي؛ وذلك أن المضارع أسبق رتبة في النفس من الماضي، ألا ترى أن أول أحوال الحوادث أن تكون معدومة، ثم توجد فيما بعد، فالمضارع معدوم باعتبار أنه لم يقع بعد، أما الماضي فقد وقع وانتهى، فإذا نفي المضارع الذي هو الأصل فما ظنك بالماضي الذي هو الفرع)[30]. ((وفي هذا النفي نوع من التوكيد، فالتعبير بالمضارع المنفي بدلاً من الماضي لا يفيد عند ابن جني استحضار الصورة، كما يفيد التعبير بالمضارع بصفة عامة، ولكنه يأتي لإرادة التوكيد))[31].

وبناء على ما تقدم يكمننا فهم سر التحول في سياق قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون 76] فالمتوقع

---

(29) المثل السائر، 195/2.

(30)الخصائص، أبو الفتح، عثمان بن جنّي (ت 392هـ)، ، 105/3.

(31)أثر النحاة في البحث البلاغي، عبدالقادر حسين، 306.

من سياق هذه الآية أن تكون على النحو التالي ((فما استكانوا لربهم وما تضرعوا)) لكن السياق القرآني تحول عن الماضي المنفي إلى المضارع المنفي، والسبب في ذلك -والله أعلم- أن حالة التضرع هي مرتبة أعلى في الخضوع من الاستكانة نفسها، إذ التضرع ضرب من الإمعان في الابتهال واللجوء إلى الله تعالى، فنفي ما هو أدنى يستلزم من باب أولى التأكيد في نفي ما هو أعلى رتبة، فإذا انتفت الاستكانة منهم، فمن باب أولى ينتفي حصول أدنى تضرع منهم، لذا تحول السياق في النفي عن الماضي إلى المضارع؛ فنفي المضارع أشد تأكيداً من نفي الماضي، -كما سبق ذكره عند ابن جني- فوافق المقال مقتضى الحال.

ولعل ذلك ما قصده ابن عاشور بقوله ((والتعبير بالمضارع في "يتضرعون" لدلالته على تجدد انتفاء تضرعهم)) [32]. إذ يفهم من قوله "تجدد الانتفاء" تكرار النفي واستمراره وذلك ضرب من التأكيد، وكأني بالسياق يقول ((ما تضرعوا، وما تضرعوا، وما تضرعوا، ...)) فقال ((وما يتضرعون))، وهو ما يفهم أيضاً من قول الألوسي ((وعبر في التضرع بالمضارع ليفيد الدوام، إلا أن المراد دوام النفي، لا نفي الدوام

ولو جرى السياق على النمط المتوقع فجاء ((فما استكانوا لربهم وما تضرعوا)) لكان المقصود -والله أعلم- وما تضرعوا التضرع المطلوب لرفع البلاء وكشف العذاب، وإنما جاء ((وما يتضرعون)) لنفي حصول أدنى شيء من التضرع أصلاً)) [33].

---

(32)التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 101/18.

(33)روح المعاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت 1270هـ)، ، 56/18.

ولا منافاة بين ما قررناه هنا وقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ ﴾ [المؤمنون 64-65] فهناك فرق بين الجؤار والتضرع.

يقول الشهاب الخفاجي (ت 1069هـ) (فالتضرع يستعمل فيما إذا كان عن صميم القلب لا باللسان فقط، ولذا عبر عن استغاثتهم أولاً بالجؤار الذي هو من صوت الحيوان، فلا منافاة بينهما كما توهم) [(34)].

وللتحول إلى المضارع دلالات تخرج عن دلالة استحضار الصورة إلى معانٍ أخرى يوحي بها السياق القرآني الكريم، من ذلك دلالة التلطف في الخطاب، وكثرة وقوع الفعل وتكراره، أو تجدده واستمراره، فمن دلالة التلطف في الخطاب قوله تعالى ﴿ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [سبأ 25].

لقد كان من المتوقع لدى المتلقي أن يجري السياق على نمط واحد فيكون((قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما أجرمتم))، ولكن السياق القرآني تحول عن الظاهر والمتوقع تحولين، تحولاً معجمياً عن لفظة "أجرّم إلى لفظة "عمل"، وتحولاً نحوياً عن الماضي "أجرمّنا إلى المضارع "تعمّلون

وعلل ذلك الألوسي فقال ((وهذا أبلغ في الإنصاف، حيث عبر عن الهفوات التي لا يخلو منها مؤمن بما يعبر به عن العظائم وأسند إلى النفس، وعن العظائم من الكفر ونحوه بما يعبر عن الهفوات، وأسند للمخاطبين، وزيادة على ذلك أنه ذكر الإجرام المنسوب إلى النفس بصيغة الماضي الدالة على التحقق، وعن العمل المنسوب إلى الخصم بصيغة المضارع التي لا تدل على ذلك))[(35)].

(34) حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، 598/6.

(35) روح المعاني، 141/22.

((وهذا أسلوب غاية في الكسب للخصم إلى جانب المتحدث، وطريق بارع في التغاضي عن هفوات الخصم، ووسيلة لتحريك دوافع التفكير في المقول، مما يشير إلى وعي الداعية إلى الله في الأسلوب الذي يدعو به الناس))[36].

ومن السياقات القرآنية التي يرد فيها هذا التحول للدلالة على كثرة وقوع الفعل وتكراره قوله تعالى ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ [الزخرف 6- 7].

ففي هذه الآية نجد التحول عن الفعل الماضي "أرسلْنا" إلى الفعل المضارع "يأتيهم"، وكان المتوقع بموجب المطابقة بين الأفعال أن يرد السياق على النحو التالي "وكم أرسلنا وما أتاهم إلا استهزؤا به "؛ لأنه يخبر عن حدث مضى، وذلك بقرينة لفظية، وهي قوله "في الأوّلين"، ولكن التحول إلى الفعل المضارع "يأتيهم" في هذا السياق دل على الكثرة والتكرار، فكثرة مجيء الرسل قوبل بكثرة الاستهزاء، والفعل الدال على ذلك "يستهزؤن" مسبوقاً بـ (كان) ((وسبق الفعل المضارع بـ (كان) قد يفيد الدلالة على اعتياد الأمر في الماضي، ووقوعه بصورة متكررة))[37]. قال الرازي ((والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق هو التكذيب والاستهزاء))[38].

والفرق بين هذا النوع من التحول الدال على الكثرة والتكرار والنوع الآخر الذي يليه الدال على الاستمرار، أن التكرار يتخلله فترات انقطاع، وإن كانت متقاربة في الزمان، في حين أن الاستمرار يقتضي الاتصال

(36) التعبير القرآني والدلالة النفسية، 199، رسالة دكتوراه، مخطوطة عبدالله الجيوسي، الجامعة الإسلامية، ماليزيا، 2001م

(37)معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، ، 319/3.

(38)تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت 604هـ)، ، 619/27.

ومن أمثلة مجيء هذا التحول للدلالة على الاستمرار، قوله تعالى ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج 8].

لقد تحول السياق القرآني عن الفعل الماضي "نقمّوا" إلى المضارع "يؤمنّوا" وكان يتوقع أن يرد السياق على النحو التالي ((وما نقموا منهم إلا أن آمنوا بالله العزيز الحميد؛ لأنه يخبر عن حدث مضى وانقضى، وهو ما حصل للفئة المؤمنة على أيدي أعدائهم، واللافت للنظر، هو مجيء الفعل المضارع ((إلا أن يؤمنوا)) وليس ((إلا أن آمنوا))، كما هو الحال في قوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة 59].

فما السر في مجيء الفعل "نقمّوا" ماضياً في سياق سورة البروج، والتحول عنه إلى المضارع "يؤمنّوا" في السياق نفسه، في حين ورد العكس في سورة المائدة إذ جاء الفعل "تنقموّن" مضارعاً وتحول عنه إلى الماضي "آمنا"؟

والذي يظهر -والله أعلم- أن السياق هو الذي يفرض التعبير المقصود للمعنى المسوق له، فيكون كل سياق قد اختص بتركيب قصد إليه لمعنى، وهو من البلاغة بمكان؛ لأنه يقتضي موافقة الكلام لمقتضى الحال

إن مجيء الفعل "نقمّوا" ماضياً في سياق الآية السابقة من سورة البروج يشير إلى أن هذه النقمة مضت وانتهت بهلاك الذين فُتِنُوا من المؤمنين، فليس فيها تجدد واستمرار، ودل التحول إلى صيغة المضارع "إلا أن يؤمنّوا" على أن أعداءهم نقموا منهم استمرارهم على الإيمان وثباتهم عليه.[39] في حين دل سياق الآية من سورة المائدة على أن نقمة أهل الكتاب متجددة مستمرة ضد المسلمين لا تنقطع

(39) انظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمّي، (ت 728هـ)، 477/6.

عنهم بحال، بدلالة الفعل المضارع "تنقمون"، ودل التحول إلى الفعل الماضي "آمّنا أن إيمان المسلمين حاصل متحقق، فهو في حكم الماضي في تحققه وحصوله، فلا مطمع لأعدائهم في ارتدادهم عنه ويبرز الانفتاح الدلالي للنص القرآني في هذا السياق، ليضيف دلالة أخرى للفعل الماضي مفادها أن إيمان المسلمين ليس حادثاً، وإنما هو امتداد لقافلة الإيمان التي مضت في تاريخ البشرية

وما سبق ذكره من الآيات القرآنية هي نماذج للنوع الأول الذي يستعمل فيه المضارع للدلالة على حدث مضى وانقضى

وأما النوع الثاني فيرد فيه المضارع للدلالة على حدث يقع في الحال والاستقبال

ويقرر البلاغيون أن مجيء المضارع للدلالة على الحال والاستقبال يفيد التجدد والحدوث، وأن هذا الحدث مستمر الوجود ولم يمض، يقول ابن الأثير ((وعطف المستقبل على الماضي ينقسم إلى ضربين أحدهما بلاغي، وهو إخبار عن ماضٍ بمستقبل، والآخر غير بلاغي وليس إخباراً بمستقبل عن ماضٍ، وإنما هو مستقبل دلّ على معنى مستقبل غير ماضٍ، ويراد به أن ذلك الفعل مستمر الوجود لم يمضِ))[40].

ويُفهم من كلام ابن الأثير أن هذا النوع من التحول ليس ضرباً من ضروب البلاغة، وما ذهب إليه ليس صحيحاً، إذ البلاغة هي موافقة المقال لمقتضى الحال، وقد جاء هذا التحول ليوافق مقتضى الحال الذي سيق من أجله كما سنوضحه لاحقاً في هذا البحث، وقد استعمل في النصوص الأدبية الراقية لا سيما القرآن الكريم، ولا يكون ذلك إلا لمنحى بلاغي، إذ لا يقع ما ليس بليغاً في كلام الله عزوجل، وقد اعترض محمد أبو موسى على ابن الأثير لإخراجه هذا النوع من التحول من البلاغة فقال ((ولست أدري لماذا كان هذا القسم غير

(40) المثل السائر، 2/194.

بلاغي؟ أليست البلاغة نظراً فيما تنطوي عليه خصائص الألفاظ وأحوالها لإبراز معانيها وبيان لطائفها ومطابقتها لبيان الكلام؟ وأليس هذا داخلاً في أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال؟))(41)

بل إن ابن الأثير نفسه عند تحليله لنماذج قرآنية من هذا النمط، أشار إلى وجه البلاغة والبيان فيها، مما يوحي بالتضارب لديه(42).

ويشير هذا النوع من التحول في السياق القرآني إلى دلالات عديدة منها

الدلالة على التجدد والاستمرار للحدث.

الدلالة على إطالة مشهد الحدث.

التركيز على نتيجة الحدث.

فمن السياقات التي يدل هذا التحول فيها على التجدد والاستمرار قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد 28].

تحول إلى المضارع (تطمئن) لدلالته على تجدد الاطمئنان واستمراره؛ وأنه لا يتخلله شك ولا تردد))(43)، ولو جرى السياق على نمط واحد فكان ((واطمأنت قلوبهم)) لما أفاد معنى التجدد والاستمرار الذي نجده في زمن المضارع الذي أضفى دلالة الزمن المفتوح في الماضي والحاضر والاستقبال، فقلوبهم قد اطمأنت بذكر الله منذ الزمن الماضي وما تزال تطمئن في الحال والاستقبال، في حين ورد ذكر الإيمان بصيغة المضي "آمنوا" لإفادة معنى الحصول والتحقق، فهو ثابت متحقق كتحقق الماضي

(41)البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، محمد أبو موسى، 547.

(42) انظر المثل السائر، 2/197- 198.

(43) التحرير والتنوير، 13/138.

ومنه قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد 22] فقد تحول عن الماضي الصلة "صبروا" وما عطف عليه إلى المضارع "يدرؤون"، وذلك ((لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يحرص عليه، لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت، فوصف لهم دواء ذلك بأن يدفعوا السيئات بالحسنات))(44).

ومن السياقات التي يرد فيها هذا التحول للدلالة على إطالة مشهد الحدث لما في ذلك من التخويف والتهديد قوله تعالى ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج 31].

إذ حصل في هذا السياق تحول عن الفعل الماضي خرّ إلى المضارع "فتخطفه أو "تهوي"، ولم يأتِ السياق على نمط واحد فيكون ((خرّ من السماء فخطفته الطير أو هوت به الريح))، وذلك أن الفعل الماضي يشير في هذا السياق إلى تحقق حصول الخرور من المشرك لا محالة حاله حال الماضي في تحققه، فقال ((خرّ من السماء))، وفيه دلالة على سرعة حصول الخرور والسقوط دون تماسك أو انتظام، كما يوحي به جرس اللفظة "خرّ" وقصرها وخفتها، وتكرار صوت الراء فيها إشارة إلى تكرار السقوط والهوي والتقلب في الهواء، وما أضفاه التفخيم في الخاء والراء من تفخيم لمشهد الهوي نفسه ((فالملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ بـ "الفاء" وفي المنظر بسرعة الاختفاء))(45).

(44) التحرير والتنوير، 129/13.

(45) في ظلال القرآن، سيد قطب، 2421/4.

((ثم تحول إلى المضارع "فتخطّفه و"تهوّي لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوي الريح به))[46].

فكان التحول إلى المضارع لاستحضار المشهد وإطالته، وأمعن في إطالة مشهد الهوي أيضاً مجيء الحرف "في" الذي أفاد هنا الإمعان في تصوير التسفل والسقوط، وكأن المكان السحيق قد أصبح ظرفاً ووعاءً له لا ينتهي فيه إلى قرارٍ، وذلك يوحي بالتهديد الشديد والإيعاد لمن كان هذا حاله. ولو قال ((إلى مكان سحيق)) لأفاد انتهاء الهوي به إلى منطقة معينة

ولو جرى السياق على النمط نفسه من المضي لمضى السياق كله على عجالة دون أن يتمكن المتلقي من إمعان النظر والفكر في مشهد الخطف والهوي

ومثله قوله تعالى ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا ﴾ [الحديد 20].

لقد تحول السياق عن الماضي "أعجّب إلى المضارع "يهيّج و"يكون"، ولو جرى السياق على نمط واحد لجاء ((كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم هاج ثم كان حطاماً))، لكن التحول عن الماضي إلى المضارع في هذا الموضع جاء لمنحى دلالي مقصود، فالسياق القرآني تجاوز لحظة الإعجاب بهذا الزرع، بالإخبار عنها بالزمن الماضي، وكأنها لحظة مضت دون تريث أو إمهال، تلاها على الفور مشهد الفناء والزوال، مخبراً عنه بالزمن الحاضر، حتى يظل مشهد

(46) المثل السائر، 197/2.

الاندثار كأنه حاضر ماثل للعيان، ولا ينافي ذلك مجيء حرف العطف "ثم"، فهو هنا يفيد التراخي الرتبي لا الزمني[47].

إذ يوحي المشهد بالتدرج من لحظة السرور والفرح بهذا النبات، إلى مرحلة شديدة على النفس متمثلة في هيجان الزرع وذبوله، تليها مرحلة أشد من سابقتها وهي مرحلة الاصفرار والاحتضار[48].

ويرد هذا التحول للتركيز على نتيجة الحدث نفسها، من ذلك قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج 63] وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج 65]، ففي الآيتين السابقتين نجد أنه قد تحول عن الماضي "أنزّل و"سخّر إلى المضارع "فتّصبح "يمسك واختيرت صيغة الماضي في ((أنزل من السماء)) و ((سخّر لكم ما في الأرض))، وذلك لأن ((الرؤية الباعثة على التأمل والاعتبار لا تتعلق بتلك الأحداث بذاتها بل بنتائجها أو آثارها المترتبة عليها))[49].

بينما جاء التحول إلى المضارع (فتصبح) في الآية الأولى ((لِتُثَبِّتَ المشهد عند نقطة مهمة، ينبغي للمتلقي أن يقف عندها ويستحضرها دائماً أمام عينيه))[50].

(47) انظر رأي الزمخشري في (ثم التي تفيد التراخي الرتبي في الكشاف، 154/4.

(48) انظر التحرير والتنوير، 405/27.

(49)أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، (د.ن)، ، 97.

(50) تحولات البنية في البلاغة العربية، 321.

وفيه دلالة على ((بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، فإنزال الماء مضى وجوده، واخضرار الأرض باق لم يمض))(51).

فمحل التأمل في الآية الأولى ليس فعل التسخير نفسه وإنما مظاهر هذا الفعل وآثاره، ومن أهمها إمساك السماء بغير عمد

ومنظر الخضرة في الأرض يشيع البهجة في النفس ويطمئن النفوس على أرزاقها، لذا جاء التعقيب بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، فهو لطيف بعباده، خبير بما يصلح أحوالهم

الصورة الثانية: التحول عن الفعل المضارع إلى الماضي:

ويرد هذا النوع من التحول في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وفي حين نجد بعض النحاة يجيز عطف الماضي على المضارع أو العكس، نجد آخرين منهم يذهبون إلى تأويل الفعل الماضي في هذه الحالة بالمضارع لينسجم السياق لديهم، فممَّن أجاز العطف مطلقاً الرضي في شرح الكافية بقوله ((ويعطف الماضي على المضارع وبالعكس، خلافاً لبعضهم، قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف 170]، ونحو ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ﴾ [الحج 25])) (52).

وممن ذهب إلى التأويل السيوطي (ت 911هـ)، إذ يشترط لصحة عطف الماضي على المضارع أو العكس، اتحادهما في التأويل، بأن يكون الماضي مستقبل المعنى ليصح عطفه على المضارع، أو المضارع ماضي المعنى ليصح عطفه

(51) المثل السائر، 198/2.

(52)شرح الكافية في النحو، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (ت 686هـ)، ، 87/3.

على الماضي، فيذهب إلى تأويل الماضي بالمضارع والعكس)) [53]، وينقل عن السهيلي عدم جواز التعاطف ((بين فعل واسم لا يشبهه، ولا فعلين اختلفا في الزمان))[54].

وذهب إلى التأويل أيضاً أبو حيان الأندلسي(ت 754هـ)، والشهاب الخفاجي (ت1069هـ)، والفراء (ت 207هـ)، وأبو البقاء العكبري (ت 616هـ)، فمن ذلك مثلاً قوله تعالى ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةً وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدًا ٤٧ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدًا ٤٨﴾ [الكهف 47- 48]، أي؛ ونحشرهم ويعرضون))[55].

ونحو قوله تعالى ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء 4]، أي فتظل)[56].

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين -كما سبقت الإشارة إليه إلى ((أن وقوع الصيغ المتغايرة في مستوى تركيبي واحد، يعني تفريغ صيغة ما، دون غيرها من الزمن، ففي قوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ [هود 98]، فالفعل "يقدّم مفرغ من دلالته على

(53) انظر همع الهوامع، 271/5.

(54) السابق، 272/5.

(55) انظر البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (ت 754هـ)، ، 134/6، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، القاضي شهاب الدين الخفاجي (ت 1069هـ)، ، 185/6 معاني القرآن، أبو زكريا يحيي بن زياد الفراء، (ت 207هـ)،

(56) انظر التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، (ت 616هـ)، ، 993/2، والبحر المحيط، 5/7، وحاشية الشهاب، 164/7.

الزمن وكذا الفعل "أورد" ، وإنما قصد بالأول استحضار صورة الحدث لا غير، وبالآخر تحقق حصول الحدث))[57].

ويرى الباحث أنه لا داعي لتأويل الماضي بالمضارع أو العكس، فلو أراد المولى عز وجل أن يرد التعبير بالمضارع أو الماضي لجاء السياق السابق على نحو ((إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فتظل أعناقهم لها خاضعين))، ولجاء قوله مصوراً حال فرعون يوم القيامة على نحو((سيقدم قومه يوم القيامة فسيوردهم النار وبئس الورد المورود))، وإنما ورد التعبير القرآني على هذا النحو لدلالة مقصودة فلا داعي للتأويل، فالعطف بين الأفعال المختلفة في الأزمنة وإن لم يظهر بين هذه المتعاطفات تناسب لفظي بموجب الصنعة النحوية فإن بينها تناسب معنوي يقتضيه السياق، وهو مبدأ نهجه البلاغيون في بحثهم للوصل والفصل[58].

وقد عني البلاغيون والمفسرون بالإبانة عن دلالات هذا التحول، فيذكر العلوي صاحب الطراز ((أن إيثار الماضي والتحول إليه يدل على مبالغة في الثوابت والاستقرار))[59].

ولا يسلم له بهذا العموم، وإنما السياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة، فقد يدل التحول إلى الماضي على الاستقرار كما قال، وقد يدل على غير ذلك من تحقق الفعل أو التقليل والانقطاع، وغير ذلك مما يدل عليه السياق ويقتضيه، فمن هذه الدلالات التي يقتضيها السياق

الدلالة على سرعة تحقق حصول الفعل وحدوثه

الدلالة على أن الفعل سابق للمضارع في التحقق والحصول.

الدلالة على الاختصاص بوصف ثابت.

---

(57) انظر الزمن واللغة، 72 بتصرف

(58) انظر موضوع الوصل والفصل في بغية الإيضاح، 85/2، وشروح التلخيص، 2/3- 72، التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د أحمد سعد محمد، 248.

(59)الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي، (ت 745هـ)، ، 140/2.

إظهار الرغبة في حصول الفعل.

إظهار الرغبة في انقطاع الفعل وتغييبه.

من السياقات القرآنية التي يدل التحول فيها إلى الماضي على سرعة تحقق الفعل وحدوثه قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل 87] فقد تحول السياق القرآني عن الفعل المضارع "ينفخ" إلى الماضي "ففزع" وكان مقتضى الظاهر للسياق أن يجري على نسق واحد فيكون "فيفزع" لأن الحدث لم يقع بعد، وإنما هو حديث عن المستقبل البعيد وهو يوم القيامة، فدل التحول إلى الماضي على سرعة تحقق الفعل وحصوله مثل تحقق الماضي في حدوثه، وكأنه يتحدث عن أمر قد حدث وحصل في الزمن الماضي [(60)] وفيه مزيد من تأكيد لأمر البعث والنشور، ودلالة على السرعة والدهشة والذهول، بدلالة مجيء حرف العطف (الفاء)

والتعبير بالفعل الماضي عن المستقبل هو أسلوب من البلاغة بمكان، يقول ابن الأثير ((والإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل فائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها)) [(61)].

وأفاد الفعل المضارع "ينفخ" استحضار صورة الحدث من المستقبل البعيد وهو يوم القيامة حتى لكأنها ماثلة أمام الأنظار، فكما أفاد المضارع في سياقات سابقة استحضار صورة الحدث من الماضي السحيق، كذلك أفاد هنا استحضار

---

(60) انظر الكشاف، 161/3.

(61) المثل السائر، 198/2.

الصورة من المستقبل البعيد ، ويجمع الاستحضارين عنصر الزمن، وهناك فرق بينهما ، فاستحضار الماضي استرجاع لزمن قد حدث بالفعل لإفادة تصويره في النفس، واستحضار المستقبل استباق للزمن كون الحدث لم يحصل لإفادة تحقق وقوعه

ونجد -أيضاً في هذا السياق أن الفعلين المضارع "ينفّخ والماضي "ففزّع قد استعملا للإخبار عن المستقبل، ولكن تختلف دلالتاهما ، فدلالة المضارع في الإخبار عن المستقبل تفيد استحضار صورة الحدث، ودلالة الماضي تفيد تحقق حدوثه وحصوله

ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨ ﴾ اهود 96- 98].

لقد تحول السياق عن المضارع "يقدّم إلى الماضي "فأوردهم"، ولو جرى على مقتضى الظاهر لكان على النحو:((سيقدم قومه يوم القيامة وسيوردهم النار))؛ لأن الحديث عن زمن مستقبل وهو يوم القيامة، ومجيء التحول إلى الماضي (فأوردهم) فيه دلالة على القطع والتأكيد بوقوع الحدث وحصوله، وصُدِّرَ الفعل بحرف (الفاء) ليدل على سرعة الورود؛ لما في ذلك من التهديد والتخويف

وهذا النوع من التحول يخبر عن نتائج محققة لأحداث سابقة لها ، تحمل طابع الدهشة والمفاجأة، فَفَزَعُ من في السموات والأرض حدث مفاجئ مترتب على النفخ في الصور، وكذلك ورود فرعون وقومه النار يعقب مشهد قدومه لهم إلى ساحة الحشر بذلة وصغار.[62] ويرد غالباً في مشاهد البعث والقيامة والحشر؛ لذا

(62) انظر الزمن واللغة، 72.

أضفى عليها الأسلوب القرآني زمن الماضي في حدوثها لتأكيد تحققها وحصولها[63].

ويرد التحول إلى الماضي للدلالة على أنه سابق للمضارع في التحقق والحصول، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف 47].

فقد جيء بـ (حشرناهم) ماضياً بعد (نسير) ((للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك))[64].

ومنه قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل 89] جاءت هذه الآية في سياق ذكر بعث الأنبياء والرسل شهداء على قومهم، وخصص خاتم الرسل ﷺ بمزيد عناية وتكريم بأن جعله الله عزوجل شهيداً على هذه الأمم كلها، وهو ما ذهب إليه بعض المفسرين[65]، ويدل على هذه العناية أيضاً التحول إلى الخطاب للرسول ﷺ بعد الإخبار عن البعث بالغيبة "وجئنا بك"، والتحول المعجمي عن كلمة البعث إلى المجيء، وفي ((إيثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه- ﷺ))[66].

(63) انظر من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني، د طالب محمد إسماعيل الزوبعي، 153.

(64) انظر الكشاف، 487/2.

(65) انظر تفسير أبي السعود، المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، (ت 951هـ)، ، 135/5، وروح المعاني، 213/14.

(66) تفسير أبي السعود، 135/5.

وفيه التحول الذي نحن بصدده عن الفعل المضارع "نبعث" إلى الماضي "جئنا"، وفي كل ذلك ((إشعار بأفضليته ﷺ على سائر المرسلين، وأفضلية شهادته في هذا اليوم على شهاداتهم، وأنه لهذا وذاك يجاء به شاهداً قبل بعث هؤلاء الرسل في أممهم شهداء))[67].

لقد أفاد التحول إلى الماضي في هذا السياق أن الفعل الماضي سابق للمضارع في تحققه وحصوله، فقوله ((وجئنا بك على هؤلاء شهيداً)) أي وجئنا بك شهيداً قبل أن نبعث في كل أمة شهيداً عليهم

ومنه قوله تعالى ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الممتحنة، 2]، فنجد التحول عن الفعل المضارع الواقع جواباً للشرط ((يكونوا ويبسطوا)) إلى الماضي "وودّوا"

ويعلل الزمخشري هذا التحول فيقول ((والماضي وإن كان يجري في جواب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة، كأنه قيل وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض وردّكم كفاراً، وردُّكم كفاراً أسبق المضار عندهم؛ لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بذالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعزّ شيء عند صاحبه) [68].

وقد بين الزمخشري في هذا السياق نكتة التحول من زاوية النظر إلى عنصر الزمن، وذلك من كون الماضي أسبق في الحصول من المضارع، ونجد بالمقابل السكاكي (ت 626هـ) وأبا السعود (ت 951هـ) وغيرهما يفسرون هذا التحول

---

(67) أسلوب الالتفات، ص 100.

(68) الكشاف، 4/90.

من زاوية النظر إلى الحدث، فالماضي يدل على تحقق الحدث وحصوله لا محالة، يقول السكاكي ((وترك يود إلى لفظ الماضي؛ إذ لم تكن تحتمل ودادتهم لكفرهم من الشبهة ما كان يحتملها كونهم -أي يثقفوهم أعداء لهم، وباسطي الأيدي والألسنة إليهم للقتل والشتم)) (69).

ويفيد حرف الشرط (إنْ) الداخل على الفعل المضارع "يثقفوكم" الشك في وقوع الحدث، فظفر الكفار بالمسلمين ليس مؤكداً فهو متوقف على مدى تمسكهم بدينهم قوة وضعفا، وهذا يختلف من حال إلى حال، في حين أن ودادة أعدائهم كفرهم أمر محقق وحاصل في كل حال، سواء قبل الظفر بهم أم بعده، فليس متعلقاً بالشرط ومترتباً عليه، فدل التحول إلى الماضي على تحققه في الحدوث وحصوله سابقاً للشرط والجواب، ولو جاء مضارعاً لأوهم تعلقه بالشرط، فيكون وُدُّ أعدائهم كفرهم أمراً حاصلاً بعد الظفر بهم لا غير، يقول أبو السعود ((ودّوا لو تكفرون)) أي تمنوا ارتدادكم، وصيغة الماضي للإيذان بتحقق ودادتهم قبل أن يثقفوهم أيضاً)) (70).

ونجد أن الآية السابقة لهذه الآية وهي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة 1] جاء التعبير فيها عما قد يصدر من المسلمين من ودٍ للكفار بصيغة الفعل المضارع ((تلقون إليهم بالمودة))، و((تسرون إليهم بالمودة)) وذلك في سياق نهي المؤمنين عن فعل ذلك، في حين ورد التعبير عما

(69) مفتاح العلوم، 240.

(70) تفسير أبي السعود، 236/8.

يوده الكفار للمؤمنين من ارتداد عن دينهم بالفعل الماضي ((وودّوا لو تكفرون)) وفي ذلك ((إبراز للمفارقة أو البون الشاسع بين ما قد يصدر من المسلمين من مولاة هؤلاء، وما يضمره الكفار لهم من ضغينة وحسد)) [(71)]. وذلك أن دلالة المضارع تفيد التجدد، في حين أن الماضي "وودّوا لو تكفروْن" أفاد التحقق والرسوخ -كما أوضحنا سابقاً- فكأن السياق القرآني يخاطب المسلمين قائلاً لهم: إنه مهما تجددت هذه المودة من قبلكم واستمرت لهؤلاء الكفار سراً أو علانية، فإنها لن تغير ما استقر في قلوبهم ونفوسهم من كراهيتكم ورغبتهم في ارتدادكم عن دينكم الذي تنعمون به دونهم.

ويرد التحول إلى الماضي للدلالة على الاختصاص بوصف ثابت من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف 170].

فالتحول في هذا السياق عن الفعل المضارع "يمسكوْن" إلى الماضي "أقاموْا" فيه دلالة على ((أن التمسك بالكتاب أمر مستمر في جميع الأزمنة بخلاف إقامة الصلاة فإنها مختصة بأوقاتها))[(72)].

ومعنى هذا أن التعبير بالمضارع قد دلّ على ((استمرار استمساكهم بكتاب الله وتجدده، كلما عنّ لهم في حياتهم أمر يهرعون إليه طلباً لهدايته وتطبيقاً لمنهجه، أما الصلاة فإنها لما ((كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)) عبر عن إقامتها بالفعل الماضي للدلالة على ثباتها، حتى صارت إقامتها على وجهها في وقتها صفة لهم))[(73)].

(71) انظر أسلوب الالتفات، ص 100.

(72) تفسير أبي السعود، 3/288.

(73) التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، 184

ومن السياقات القرآنية التي يرد فيها التحول إلى الماضي للدلالة على إظهار الرغبة في حصول الفعل قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة 215].

لقد حصل التحول عن المضارع "ينفقون" إلى الماضي "أنفقتم" ولو جرى السياق على مقتضى الظاهر لكان (("يسألونك ماذا ينفقون، قل ما تنفقون")) لأن الجواب جاء بأسلوب الشرط، والشرط يقتضي الاستقبال، والنحاة يؤولون فعل الشرط الماضي بالاستقبال.[74] ((ولكن القصد من مجيء الشرط ماضياً وإن كان معناه الاستقبال، هو إنزال غير المتيقن منزلة المتيقن، وغير الواقع منزلة الواقع))[75].

يقول ابن جني ((وكذلك قولهم (إن قمتَ قمتُ) فيجيء بلفظ الماضي والمعنى معنى المضارع، وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وقوعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه، حتى كأن هذا قد وقع واستقر، لا أنه متوقع مترقب))[76].

ومما سبق ذكره يتضح لنا سر التحول إلى الفعل الماضي في الشرط، في قوله تعالى ﴿مَآ أَنفَقْتُم﴾ وإن كان مستقبلاً في معناه، وذلك لإظهار الرغبة في حصوله وحثهم على فعله، فكأنه حاصل منهم متقرر، متجاوزاً مسافة الزمن في ذلك ليشد الانتباه إلى حقيقة الحدث نفسه وهو الإنفاق، مشيراً إلى وجوه مصارفه الحقة، ليصرف عن النفس أدنى تردد أو شُحٍّ في الإنفاق والعطاء

(74) انظر التصريح، 249/2، وحاشية الخضري، 122/2، وحاشية الصبان، 16/4.

(75) معاني النحو، 56/4.

(76) الخصائص، 105/3.

ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [البقرة 159- 160].

نزلت هذه الآية في أحبار اليهود [77] الذين كتموا ما في التوراة من صفات الرسول ﷺ، ودينه الخاتم، ودلائل صدق نبوته

وقد حصل التحول في الآية الكريمة عن الفعل المضارع الواقع في جملة الصلة (الذين يكتمون) إلى الماضي الصلة ((الذين تابوا))، وما عطف عليه ((وأصلحوا))، و((بيّنوا))، ولو جاء السياق على أصله في مقتضى الظاهر لكان ((إلا الذين يتوبون ويصلحون،)) فيأتي فعلاً مضارعاً دالاً على الاستقبال[78]، لا سيما أن قوله تعالى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ ﴾ يراد به الاستقبال؛ ((لأن (يكتمون) فعل مضارع وهذا بعده، فالتوبة بعد الكتمان))[79].

والذي يظهر لي -والله أعلم أن مجيء التحول إلى الفعل الماضي في هذا السياق أفاد الحث على التوبة والحض على الإصلاح والتبيين، فالماضي يدل على تحقق وقوع الفعل وحصوله، وكأنه يخبر عن توبة قد حصلت منهم وإصلاح قد كان، أو هكذا ينبغي أن يكون

---

(77) انظر في أسباب نزول ذلك تفسير أبي السعود، 182/1، وروح المعاني، 26/2- 27، والتحرير والتنوير، 65/2.

(78) الفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال وهو ما نص عليه جمهرة من النحاة من ذلك ما ذكره المبرد في المقتضب 2/2، "تقول زيد يأكل فيصلح أن يكون في حال أكل، وأن يأكل في ما يستقبل"، وجاء في المفصل 137/2 "ويشرك فيه الحاضر والمستقبل والذي يحدد كونه للحال أو الاستقبال قرينة السياق

(79) معاني النحو، 31/3 6.

وأما التعبير بالفعل المضارع "يكتمون" فيرى ابن عاشور ((أنه للدلالة على أنهم -أي علماء اليهود- في الحال كاتمون للبيّنات والهدى، ولو وقع بلفظ الماضي لتوهم السامع أن المعنِيَّ به قوم مضوا، مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين)) (80).

ويرى الباحث أن دلالة الفعل "يكتمون" تتجاوز دلالة الحال إلى دلالة الاستمرار، فالكتمان للبينات والهدى حاصل منهم حال نزول القرآن، ويتجدد ذلك منهم ويستمر إلى قيام الساعة، فكتمان الحق صفة فيهم على الدوام.

وإذا كان التحول عن المضارع إلى الماضي في السياقات السابقة قد دل على الرغبة في حصول الحدث وتحققه، فإنه قد يرد في سياقات أخرى ليدل على النقيض وهو الرغبة في الانصراف عن الفعل وتركه، وهذا يدل على أن السياق هو الذي يحدد الدلالة المناسبة للتحول، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان 12].

سبقت الإشارة في هذا البحث أن فعل الشرط إذا جاء ماضياً، وحقه أن يأتي مضارعاً كما هو الأصل اللغوي، فإنه يدل على تحقق الحدث وحصوله، وقد يرد ماضياً لأسباب أخرى كالتفاؤل أو لإظهار الرغبة في وقوعه -كما سلف ذكره- ((أو للدلالة على حصول الحدث مرة واحدة، في حين أن المضارع قد يفيد تكرار الحدث وتجدده))(81).

وكل الدلالات السابقة قد يقبلها الفعل ولكن السياق -كما أسلفنا- هو الذي يحدد الدلالة المناسبة للتحول إلى الماضي، فقد ذكرنا في سياق سابق أن التحول إلى الماضي "أنفقتم" في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾

(80) التحرير والتنوير، 66/2.

(81) معاني النحو، 58/4.

[البقرة 215] قد أفاد الرغبة في هذا الإنفاق فأتى به ماضياً وإن كان مستقبلاً في المعنى، في حين دل المضارع السابق له في السياق نفسه ((يسألونك ماذا ينفقون)) على التجدد والاستمرار في النفقة، فأراد المولى -عزوجل الرغبة عند المكلفين في تحقق الحدث وحصوله على صورة التجدد والاستمرار، فنكون بذلك قد جمعنا بين أكثر من دلالة في سياق واحد إذا احتملها السياق، وكذلك الحال نفسه في هذه الآية التي نحن بصددها، فيرى فاضل السامرائي أن سر مجيء الفعل (يشكر) بصيغة المضارع، و(كفر) بصيغة الماضي؛ ((لأن الشكر يتجدد ويكثر، وليس كذلك الكفر، فإن الكفر يحصل ابتداء ويبقى صاحبه عليه إلا إذا شاء الله، فالشكر عمل يومي متجدد بخلاف الكفر الذي هو الاعتقاد))(82).

ولكن ما ذهب إليه السامرائي في هذا السياق ينقضه ما ورد في سياقات قرآنية أخرى، من ذلك قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة 121].

وقوله تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران 19]، وقوله تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء 136]، ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران 21]، وقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

(82) معاني النحو، 58/4.

يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴾ [النساء 150].

ففي السياقات السابقة وغيرها ورد التعبير عن الكفر بصيغة المضارع الذي يدل على التجدد والحدوث، خلافاً لزعمه أن الكفر يرد مرة واحدة ولا يتجدد؛ لذا ورد التعبير عنه في سياق الآية بالماضي

والحقيقة أن دلالة التحول إلى الماضي ينبغي فهمها من السياق نفسه، وبالمقارنة بالفعل المتحول عنه، مع افتراض بقاء التركيب على أصله ثم النظر إلى البدائل الأسلوبية الحاصلة في السياق وما أضفته من بعد دلالي جديد، فسياق الآية يذكر الشكر بصيغة المضارع (من يشكر) ثم تحول عنه إلى الماضي، بقوله (ومن كفر)، فالسياق سياق ترغيب وحث على الطاعة والشكر وتنفير من الشرك والكفر، بدليل سياق الآية كله ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان 12].

وجاء بعدها على التو ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان 13]، فجاء قوله تعالى ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان 12]، بين أمر ونهي، فهو مسبوق بأمر بالشكر ((أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ))، وملحوق بنهي ((لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ))، فالسياق كله أمر بالإيمان والشكر ونهي عن الكفر والشرك فدل المضارع في الحالة هذه على التجدد والاستمرار للحث على تجدد الشكر واستمراره، ومحاولة الوصول فيه إلى مرتبة من الكمال والتمام، ثم تحول عن

ذلك في التعبير عن الكفر بالماضي ((ومن كفر))، تغييباً لحدث الكفر، وعدم التوقف عنده رغبة للانصراف عنه والترك

قال الرازي (ت 606هـ): ((وفي هذه الآية قال في الشكر (ومن يشكر) بصيغة المستقبل، وفي الكفران ((ومن كفر فإن الله غني حميد))، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد، كقول القائل من دخل داري فهو حر، ومن يدخل داري فهو حر[83]، فنقول فيه إشارة إلى معنى، وإرشاد إلى أمر، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت لتكرر النعمة، فمن شكر ينبغي أن يكرر، والكفر ينبغي أن ينقطع، فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران))[84].

الصورة الثالثة: التحول عن الماضي إلى الأمر:

ويمثل الفعل الماضي في هذه الحالة (جملة خبرية) في حين يمثل فعل الأمر جملة (إنشائية طلبية)، ((والتحول عن الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي يهدف إلى تحقيق أغراض بلاغية تتوزع على الوظيفة الانفعالية (المتكلم) والوظيفة الافهامية (المتلقي) كدلالة الرضا بالواقع الصياغي حتى كأنه مطلوب تحقيقه في الواقع بالفعل))[85].

من ذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف 29].

---

(83) ليس كذلك، بل بينهما فرق في المعنى كما سبقت الإشارة إليه في هذا البحث، وهو أن مجيء الشرط ماضياً دليل على الرغبة في تحققه وحصوله، ومجيئه على أصله المضارع شرط مطلق، فقوله من دخل داري فهو حر، فمع دلالة الشرط، فيه مزيد حث وحظ على الدخول، وقوله من يدخل داري فهو حر، شرط محض، وليس فيه مزيد تأكيد على ذلك، وسياق المقام هو الذي يحدد النظم المناسب للكلام

(84) تفسير الرازي، 146/25.

(85) تحولات البنية في البلاغة العربية، 132.

حصل التحول في هذا السياق عن الماضي إلى الأمر (وأقيموا) ((ولو جاء السياق على أسلوب واحد، لقال ((أمر ربي بالقسط وأمركم أن تقيموا وجوهكم﴾))[86].

فالمستوى السطحي[87]:

أمـــر → ← أقيموا

مـاضٍ → ← أمـــر

والمستوى العميق

أمـــر ⟵ (أمر) بإقامة

مـاضٍ ⟵ مــاضٍ

وندرك سر هذا التحول من ارتباط هذه الآية بما قبلها، إذ هي رد على مقولة الكفار التي ذكرها المولى عز وجل بقوله ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف 28].

وجاء الحديث عن الأمر بالقسط بأسلوب خبري، وإن كان متضمناً معنى الإنشاء ((أمر ربي بالقسط)) إذ معنى ذلك (أقسطوا) ولكنه جاء بأسلوب خبري ولم يأتِ أمراً مباشراً

فلم يقل "قل أقسطوا وأقيموا" وذلك للدلالة على أمرين

الأول أن فعل الماضي في (أمر ربي بالقسط) يدل على تحقق ذلك الأمر وحصوله، فهو ((مبدأ موغل في القدم، به قام ميزان السموات والأرض، ولذلك

---

(86) الطراز 137/2.

(87) أي على سطح البنية، وإلا فما جاء على سطح البنية هو العمق في الدلالة نفسها، وإنما هذا الافتراض على مقتضى المطابقة في السياق.

أسند الفعل الماضي إلى الذات العلية (ربي)، ليعمق الإحساس بالقدم والتمام، لأن الأمر صدر عن الذات الأزلية))[88].

والثاني أن القسط هو ما أمر الله به وشرَعَه، سواء التزموا به أم لم يلتزموا، فلا يغير ذلك من أمره شيئاً، فهو أمر أزلي استقام عليه أمر الكون والحياة، ولو قال "أقسطوا لكان الأمر موجهاً إليهم على وجه الخصوص، ولم يفد تحققه في الزمن الماضي واستمراره في الحاضر والمستقبل، فالفعل (أمر) فعل سلب منه الزمن، فهو دال على الأمر بالقسط مطلقاً، ثم تحول إلى الأمر (وأقيموا) للدلالة على أنه ما دام أمر الله بالقسط أمراً أزلياً كوناً وشرعاً، فحقكم أن تنفعلوا لأمره الكوني، ومراده الشرعي، فتحققوا معنى القسط في حياتكم بإقامة وجوهكم للصلاة له عند كل مسجد

وفي هذا السياق تتوافق البنية العميقة مع البنية السطحية ((فالمحافظة على تنفيذ الأمر بالصلاة في الحاضر والمستقبل ((كما هي دلالة الأمر)) تؤدي إلى التمسك بإقرار مبدأ التحول، سواء في التعامل مع المنعم الأعلى عز وجل؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وربه، أو في التعامل مع الناس، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر))[89].

لذا كان التحول إلى الأمر ليدل على طلب الفعل على سبيل الوجوب ويحمل في طياته الزمن الحاضر والمستقبل، وأفاد المتلقين ((العناية بتوكيده في نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده))[90].

ومن دلالات هذا التحول الدلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله من ذلك قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ

(88) تحولات البنية في البلاغة العربية، 324.

(89) تحولات البنية في البلاغة العربية، 324.

(90) المثل السائر، 2/193.

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة 65- 66].

نجد السياق كله يدل على أن الأحداث الواردة فيه قد حصلت في الزمن الماضي، بقرائن لفظية ((ولقد علمتم، اعتدوا، فجعلناهم، فقلنا، فجعلنا))، فالزمن المسيطر على السياق هو زمن الماضي، ولكن السياق تحول عن الفعل الماضي إلى الأمر بقوله ((كونوا قردة))؛ لأن في الأمر "كونوا" شداً للانتباه بالتحول الحاصل في السياق؛ مما جعل الأمر مركزاً على بؤرة الحدث الهامة وهي تحول ذواتهم إلى قردة خاسئين، وفيه دلالة على سرعة تحقق الحدث وحصوله مستمداً ذلك من قدرة الآمر عزوجل القائل للأشياء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس 82]، وكأن المولى -عزوجل قد أمر الحدث نفسه أن يكون فكان، فإذا بذواتهم قد انفعلت لهذا الأمر الإلهي على وجه السرعة فانمحت معالم البشرية والإنسانية منهم ليصبحوا مسخاً حقيقياً حاصلاً فيهم، ففي الأمر دلالة على قوة إيقاع الحدث وتحققه لا تكون في الماضي في ما لو كان السياق على نحو ((فجعلناهم قردة خاسئين))؛ لأن الأمر يدل على شدة غضب الجبار عليهم، وصدور الأمر منه على وجه السرعة والقوة والجبروت

وهذا السياق سياق تحول وتغيير، فكما حصل تحول في أشكالهم وذواتهم رافق ذلك تحول في التعبير عن ذلك الحدث، فوافق تحول المعنى تحول في المبنى

قال أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ) (فقلنا لهم "كونوا" أمر من الكون، وليس بأمر حقيقة؛ لأن صيرورتهم إلى ما ذكر ليس فيه تكسب لهم؛ لأنهم ليسوا قادرين على قلب أعيانهم قردة بل المراد منه سرعة الكون على هذا

الوصف، كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس 82] ومجازه أنه لما أراد منهم ذلك صاروا كذلك[91].

وقد يرد التحول إلى الأمر للدلالة على كيفية وقوع الحدث، كما في قوله تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة 243].

يخبر السياق عن حدث مضى، وكان يقتضي أن يكون ((فأماتهم الله ثم أحياهم))، ولكنه تحول عن الماضي إلى الأمر "موتوا"، للدلالة على أن الحدث قد وقع بسرعة وقوة شملت جميع المخاطبين فلم يتخلف عنه أحد، وأن الموت قد تلبسهم جميعاً في لحظة واحدة، ولو قال "فأماتهم" لما كان في الماضي دلالة على ذلك، ولكان المعنى أنهم قد ماتوا فحسب، يقول الزمخشري (ت 538هـ) ((فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم))[92]، فإن قلت ما معنى قوله فقال لهم موتوا قلت معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف كقوله تعالى ((إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)

ثم مثّل الفعل الماضي "فأحياهم" تحولاً عن الأمر إلى الماضي، لدلالة توحي بأن القدرة الإلهية هي التي أحيت كما أماتت، إذ ليس بمقدور الأموات أن يكونوا أهلاً للخطاب وتوجيه الأمر إليهم فيما لو قال ثم (احيوا) وفيه إشارة إلى

---

(91) البحر المحيط، 1/246.

(92) الكشاف، 1/377- 378.

مطل الزمن مع التراخي الذي يشي به الحرف (ثم) مع فعل الإحياء، حتى يشاهد بعضهم بعضاً لحظة الإحياء فيكون ذلك أشد وقعاً على النفس وأثراً

ويرد التحول عن الماضي الذي يمثل جملة خبرية إلى فعل الأمر الذي يمثل جملة إنشائية بقصد التفريق بين مضمونهما، منه قوله تعالى ﴿ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج 30].

حقق التحول عن الماضي (أُحِلَّتْ) الذي هو جملة خبرية إلى الأمر (فاجتنبوا الرجس ..)) الذي يمثل جملة إنشائية طلبية دالة التفريق بين الخبر والإنشاء، فالخبر بصيغة الماضي في قوله تعالى ((وأحلت لكم بهيمة الأنعام)) يشير إلى تحقق حصول الحل وتلبسهم به منذ زمن، وفي ذلك مزيد فضل عليهم وامتنان، ثم استثنى مما أحله من الأنعام ما يتلى عليهم فأتى بصيغة المضارع، وحقه أن يأتي بالماضي لمطابقة السياق فيكون ((إلا ما تلي عليكم)) فأفاد المضارع هنا الاحتراز؛ أي ما يتلى عليكم من المحرمات في هذه الآيات وما سيعقبها من محرمات لاحقة لا ما قد ذكر في آيات سابقة فحسب، ثم تحول عن الإخبار إلى الإنشاء والطلب فقال ((فاجتنوا الرجس من الأوثان))، وفي التحول عن الإخبار إلى الإنشاء، وهما أسلوبان مختلفان من أساليب العربية إشارة إلى اختلاف مضمونها مبنىً ومعنىً، فالحلال يختلف تماماً عن الحرام وبينهما بون شاسع، لذلك حسن مجي الأمر بالاجتناب ليكون هذا التحول في الأسلوب لافتاً للنظر إلى الاختلاف بينهما، وأن الرجس من الأوثان وقول الزور لا يدخلان في الحلال

ولو جاء السياق على نسق واحد من الإخبار، فقال ((وأحلت لكم بهيمة الأنعام وحرم عليكم الرجس من الأوثان وقول الزور))، لما كان فيه من الدلالة المذكورة في المفارقة ما في هذا التعبير

وازداد الانفتاح الدلالي بإيجاد العلاقة السببية بين الأسلوبين، فكأن السياق القرآني يشير أيضاً إلى أن امتثال أوامر الله -عزوجل هي سبب في حفظ ما أحله الله، وسبب في بقاء نعمته على العبد، فبينهما علاقة السببية من وجه والمفارقة من وجه آخر

الصورة الرابعة: التحول عن المضارع إلى الأمر:

ويتحول عن المضارع إلى الأمر للدلالة على اختلاف الفعلين، نحو قوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام وقومه ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود 53- 54] فأتى بالفعل المضارع ابتداء فقال ((أُشْهِدُ الله)) ثم تحول عنه إلى فعل الأمر عند مخاطبة قومه فقال ((واشهدوا))، ولم يقل ((وأُشْهِدُكم)) فخالف في المطابقة بين الأفعال، على نحو من التباين بين البنية السطحية والعميقة، على النحو التالي

المستوى السطحي:

أُشْهِــدُ ← اشهدوا

مضارع ← أمــر

المستوى العميق:

أُشْهِـدُ ← أُشْهِدُكُم

مضارع ← مضارع

لقد تضمن هذا السياق تحولاً عن صيغة المضارع ((أشهد الله)) إلى صيغة الأمر ((واشهدوا))، وذلك لإبراز البون الشاسع بين الإشهادين، فإشهاده الله إشهاد صحيح وثابت عن اعتقاد ويقين، وإشهاده إياهم ليس إشهاداً حقيقياً وإنما

هو على سبيل السخرية والتهكم والتحدي لإرادتهم[93]، لذا أتى به بصيغة الأمر ((واشهدوا)) ليشير إلى الهوة الكبيرة بين الطرفين طرف آمر وحقه أن يطاع وهو "هوّد عليه السلام، وطرف آخر مأمور حقير الشأن وهم قوم هود

ففي الأمر ((اشهدوا)) دلالة واضحة على البراءة التامة بين الطرفين وعلى التحدي القوي من قبل نبي الله هود لقومه، فأبرز هذا التحول ((مواقف الطرفين المتباعدين عن طريق ذكر صيغة المضارع التي توضح تشريف الطرف الأول وقوته وعظمته ثم التحول عنها إلى صيغة الأمر الدالة على حقارة شأن الطرف الثاني وبطلان موقفهم الذليل))[94].

ويرى ابن المنيَّر أنه (ت 689هـ) (يحتمل أن يكون إشهاده لهم حقيقة والغرض إقامة الحجة عليهم، وإنما تحول إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر) [95].

وقد يتحول عن المضارع إلى الأمر للدلالة على أن الفعل المضارع يراد به الأمر، من ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة 155].

أتى بالفعل المضارع المؤكد (ولنبلونكم) ثم تحول إلى فعل الأمر ((وبشر الصابرين))، ولم يقل (ولنبشرنَّ الصابرين) حتى يكون السياق مطرداً على نسق المضارع المؤكد على نحو ((ولنبلونكم ... ولنبشرنَّ))

(93) انظر الكشاف، 276/2.

(94) تحولات البنية في البلاغة العربية، 326.

(95) حاشية ابن المنير على الكشاف، 276/2، وانظر المثل السائر، 193/2.

ويرى الألوسي (ت 1270هـ) أن قوله (وبشر الصابرين) معطوف على (ولنبلونكم) من قبيل عطف المضمون على المضمون، ((أي الابتلاء حاصل لكم وكذا البشارة، لكن لمن صبر منكم))[96].

وهذا العطف بين الإنشاء والخبر هو ما عرف عند الزمخشري بعطف القصة على القصة، فالزمخشري لا يمنع عطف الإنشاء على الخبر ما دام المعتمد بالعطف هو مضمون الجمل لا الألفاظ، وحينئذ لا تطلب المشاكلة بين الألفاظ، وإنما تطلب المناسبة بين المعاني))[97].

((فهو عطف معنى الكلام ومفهومه ومضمونه الكلي المنبثق من جزئيات متعددة مختلفة الصور خبراً وإنشاء على مضمون كلي مثله))[98].

والذي يظهر أن قوله تعالى ((ولنبلونكم)) فيه معنى إنشائي، هو طلب الصبر منهم على البلاء؛ لأن الإخبار بذلك مآله طلب الصبر على ذلك البلاء، فيكون (بشر) معطوفاً على (لنبلونكم) لما فيه معنى الطلب، ((ولكنه تحول عن أن يقال فاصبروا وأبشروا إلى ما عليه النظم ليكون الخبر المؤكد في (لنبلونكم) مفجراً الرغبة والعزم على الصبر ومقابلة البلاء به))[99].

ومنه قوله تعالى ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴾ [مريم 46].

ففي هذه الآية تحول عن الفعل المضارع (أرجمنك) إلى الأمر (واهجرني) ولم يقل (ولأهجرنك)

(96) انظر روح المعاني، 23/2.

(97) انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، 533.

(98)مسالك العطف بين الإنشاء والخبر، د محمود توفيق سعد، ، 16.

(99) السابق، 20.

وقد علل الزمخشري وغيره أن فعل الأمر (اهجرني) ((معطوف على محذوف يدل عليه لأرجمنك؛ أي فاحذرني واهجرني؛ لأن لأرجمنك تهديد وتقريع))(100).

فالفعل (لأرجمنك) فيه تهديد ووعيد بإبراهيم -عليه السلام مضمونه إنشاء، يراد به تحذيره من سب آلهتهم المزعومة، وكأنه يقول إذا لم تنته فاحذرني

الصورة الخامسة: التحول عن الأمر إلى الماضي:

منه قوله تعالى ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة 125].

في هذا السياق القرآني تحولان تحول عن الماضي (جعلنا) إلى الأمر (اتخذوا)، ثم إلى الماضي (عهدنا)، وذلك على النحو الآتي

(جعلنا) ← (اتخذوا) ← (عهدنا)

ماض ← أمر ← ماض

ففعل الأمر (اتخذوا) مثل تحولاً عن الأصل السياقي وهو الفعل الماضي (جعلنا)، ثم أصبح يمثل أصلاً سياقياً جديداً للفعل الماضي (عهدنا) فمثل الفعل (عهدنا) تحولاً عن الأمر إلى الماضي

والتحول عن الماضي (جعلنا) إلى فعل الأمر (اتخذوا) فيه شد لانتباه المتلقي للنص القرآني، وذلك "لتقوّية روابط الاتصال بينه وبين النص؛ لأن السياق

(100) انظر الكشاف، 511/2، مسالك العطف بين الإنشاء والخبر. د محمود توفيق سعد، ، 34/11، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ)، ، 206/12، وتفسير أبي السعود، 268/5، مسالك العطف بين الإنشاء والخبر. د محمود توفيق سعد، ، 38.

القصصي المروي ليس غريباً عنه، وإنما يحتوي على أمور تهمه وتتصل به، يجب الحرص عليها وإحياؤها، لتكون مسيرته موصولة بتراث سابقيه))[101].

ويرى الزمخشري أن هناك فعلاً ماضياً محذوفاً تقديره "قلْنا" قبل فعل الأمر (اتخذوا)، أي وقلنا اتخذوا، وذلك لاطراد الأفعال الماضية في السياق، ولتختفي المخالفة في الأفعال[102]، والحقيقة أن الحذف نفسه على -رأي الزمخشري قد أظهر فعل الأمر بارزاً في السياق لدلالة مراده ينبغي التوقف عندها وفهمها، وهي -كما ذكرنا- مقصود منها شد انتباه المتلقي للعمل بهذا التوجيه الإلهي من اتخاذ مقام إبراهيم مصلى، ثم استمر السياق في السرد الحكائي للأحداث الماضية بعد ذلك

ويحسن التنويه في هذا السياق إلى قراءة نافع وابن عامر بصيغة الماضي (واتَّخَذُوا) بفتح الخاء، وعلى هذه القراءة ينتفي التحول، إذ يصبح السياق كله سياق سرد ماضٍ، وتمثل كل قراءة وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، فورود القراءة بصيغة الماضي (واتَّخَذُوا) تفيد الإخبار عن الأمم السابقة من المؤمنين أنهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى

ويرى ابن خالويه (ت 370هـ) (أن الله أمر بذلك المسلمين من هذه الأمة مبتدئاً ففعلوا ما أمروا به فأثنى بذلك عليهم وأخبر به، وأنزله في العرضة الثانية) [103].

فتكون القراءة بالإخبار عن وقوع الفعل قد تنزلت بعد قراءة الأمر به، وترتبت عليها، فجمع نسق الآية هذين المعنيين بقراءتيه، أي قال لهم المولى عزوجل اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى فاتخذوه مصلى

(101) تحولات البنية في البلاغة العربية، 327.

(102) انظر الكشاف، 310/1.

(103) الحجة في القراءات السبع، 87.

الصورة السادسة: التحول عن فعل الأمر إلى المضارع:

قد يأتي فعل الأمر ابتداء ثم يتحول عنه إلى الفعل المضارع فيكون في المضارع مزيد حث على تنفيذ هذا الأمر، وذلك من خلال استحضاره مشهد الحدث، نحو قوله تعالى ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٧١ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٢﴾ [الأنعام:71- 72].

فنجد حركة الأفعال في السياق على النحو الآتي(104):

المستوى السطحي:

أقيموا ، واتقوه	← تحشرون
أمـــــر	← مضارع

المستوى العميق:

لنسلم، وأن نقيم ونتقيه	← نحشر (لأنه هو الذي إليه نحشر)
مضـــــارع	← مضـــــارع

أي أن البنية العميقة للسياق وفق مطابقة الأزمنة في الأفعال تقتضي أن تكون على نحو

((وأمرنا لنسلم لرب العالمين وأن نقيم الصلاة ونتقيه؛ لأنه هو الذي إليه نحشر.)

وبذلك تطرد الأفعال على نسق واحد وهو زمن المضارع، إلا أن السياق في بنيته السطحية قد أبرز فعل الأمر (أقيموا ، واتقوه) ليجسم معنى الفرض، والوجوب عند ذكر الصلاة والتقوى، ثم تحول إلى المضارع (تحشرون) ليفيد الاستحضار الدائم لمشهد الحشر المستقبلي بأهواله الجسام، وجعله متجدداً

(104) انظر تحولات البنية في البلاغة، 328.

دائماً أمام عين المتلقي، لكي يقبل بهمة على تنفيذ الأوامر السابقة وهي الإسلام، وإقامة الصلاة، والتقوى(105).

وقد يتحول عن أمر إلى المضارع للدلالة على أن الأمر في معنى الخبر لا الطلب

من ذلك قوله تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ [مريم 75- 76].

جاء السياق القرآني بفعل الأمر (فليمدد) ثم تحول عنه إلى المضارع (ويزيد) وذلك على النحو الآتي

المستوى السطحي:

فليمدد ← ويزيد

أمر ← مضارع

المستوى العميق:

فليمدد ← وليزد

أمر ← أمر

ولو جاء السياق على نسق واحد لكان (فليمدد له الرحمن مدا . وليزد الله الذين اهتدوا هدى)

ويكون في الفعلين حينئذ معنى الدعاء (فليمدد وليزد)، ولكن السياق خالف بينهما للدلالة على أن فعل الطلب (فليمدد) يراد به الخبر لا الإنشاء

(105) انظر السابق، 329، والفتوحات الإلهية، 47/2.

يقول الزمخشري (((ويزيد) معطوف على موضع فليمدد؛ لأنه واقع موقع الخبر، تقديره من كان في الضلالة مدّ أو يمد له الرحمن ويزيد)) [106].

وعندئذ يصبح السياق مطرداً تقديره من كان في الضلالة يمد له الرحمن مدا ويزيد الله الذين اهتدوا هدى.

فيكون الطلب قد وضع موضع الخبر، أي جيء بالطلب والمراد به الخبر، وإنما تحول به عن أسلوب الخبر إلى الإنشاء الطلبي مبالغة في تأكيد ذلك وحصوله وكأنه أمر واجب تحققه ووقوعه[107].

وقد خلص الباحث بعد ذلك من بحثه إلى أن التحول في الأفعال هو من أبرز الظواهر الأسلوبية في التعبير القرآني، وأكثرها وروداً، ويمثل مظهراً من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم.

وإن للسياق دوراً بارزاً ومهماً في تحديد الدلالة المناسبة لهذا التحول، ومن خلال تحليل سياقات تحولات الأفعال المتعددة في النص القرآني، نخلص إلى أن كل تحول في المبنى يصاحبه تحول في المعنى قطعاً

وأن الأفعال في السياق القرآني تكتسب دلالتها الزمنية من السياق الواردة فيه لا من بنيتها الصرفية فحسب، كما أنه ينبغي الربط بين البنية العميقة للتركيب والبنية السطحية ليظهر من خلال ذلك جماليات التركيب ووظيفته البلاغية

(106) الكشاف، 522/2، وانظر تحولات البنية، 132

(107) انظر الكشاف، 521/2.

قائمة المصادر والمراجع:

1. أبو البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، التبيان في إعراب القرآن، (ت 616هـ).
2. أبو السعود محمد بن محمد العمادي، تفسير أبي السعود، المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (ت 951هـ)، دار المصحف، القاهرة، د.ت.
3. أبو الفتح، عثمان بن جنّي (ت 392هـ)، الخصائص، ت محمد علي النّجار، دار الكتاب العربي، بيروت، 1952م.
4. أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ت إبراهيم العزباوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتاب العربي، ومؤسسة جمال، بيروت، (د.ت).
5. أبو القاسم الزجاجي (ت 337هـ)، الإيضاح في علل النحو، ت مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط3، 1979م.
6. أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت 538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر، 1977م.
7. أبو حيان الأندلسي، (ت 754هـ)، البحر المحيط 2، دار الفكر، بيروت، 1983م.
8. أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه، (ت 370هـ)، الحجة في القراءات السبع، ت عبدالعال سالم مكرم، دار الشروق، ط3، بيروت، 1979م.
9. أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، (ت 626هـ)، ت نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م.
10. أسامة البحيري، تحولات البنية في البلاغة العربية، دار الحضارة، مصر، ط1.

11. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1994م.
12. جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، 1973م.
13. جلال الدين السيوطي، (ت 911هـ)، همع الهوامع، ت. د عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، ط2، 1987م.
14. حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، (د.ن)، 1990.
15. رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (ت 686هـ)، شرح الكافية في النحو، ت. د عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 2000م.
16. سيبويه، أبي بشر بن عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت 180هـ)، الكتاب، ت عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م.
17. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط 22، 1414هـ 1994م.
18. شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ت 1270هـ)، روح المعاني، إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
19. ضياء الدين بن الأثير (ت 636هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعرت أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط2، 1983م.
20. طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني، دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني، دار النهضة العربية، بيروت، 1996م.
21. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

22. عبد القاهر الجرجاني ت (474هـ)،دلائل الإعجاز، ت محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي،القاهرة، ط3، 1992م.
23. عبدالحميد أحمد يوسف هنداوي، الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1422هـ - 2001م.
24. عبدالقادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة، 1998م.
25. فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، الأردن، ط 2، 2002م 0م.
26. فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، دار الفكر، الأردن، ط 1، 1420هـ- 2000م.
27. فاضل مصطفى الساقي، أقسام الكلام العربي، من حيث الشكل والوظيفة،مكتبة الخانجي، القاهرة، 1977م.
28. فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت 604هـ)،تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب دار الفكر، بيروت، ط 1، 1981م.
29. فندريس، اللغة، ترجمة عبدالحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، 1950م
30. القاضي شهاب الدين الخفاجي (ت 1069هـ)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، ت عبدالرزاق المهدي، دار المكتبة العلمية، بيروت، 1997م.
31. مالك المطلبي،الزمن واللغة، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1986م

32. محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، مكتبة وهبة، عابدين، القاهرة، ط2، 1408هـ 1988م.

33. محمد عبدالله درّاز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ت محمدعبدالحميد الدخاخني، دار طيبة، الرياض، 1997م.

34. محمود توفيق سعد، مسالك العطف بين الإنشاء والخبر، مطبعة الأمانة، مصر،

35. نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمّي، (ت 728هـ)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ضبطه وخرج أحاديثه زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1416هـ 1996م.

36. يحيى بن حمزة العلوي، (ت 745هـ)، الطراز، المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، مصر، 1914م